

علم الأصوات الوظيفي بين الموروث اللغوي و علم اللّغة الحديث
دراسة تأصيلية بين "ابن جنّي" و "تروبسكوي"

Phonology between linguistic heritage and modern linguistics
Rooting study between "Tbn Jenny" and "Trubetskoy"

سامي بودلال *

جامعة محمد الصديق بن يحيى جيجل- (الجزائر): samiboudlal@univ-jijel.dz

تاريخ النشر: 2022 /01/31

تاريخ النشر: 2022 /01/23

تاريخ الارسال: 2022 /01/07

الملخص:

تهدف هذه الدّراسة إلى إبراز دور الاتجاه الوظيفي في الدّرس الصوتي، والكشف عن خصائصه وقوانينه التي تكمن وراء إبدال الأصوات وتغييرها، ودراستها دراسة موضوعية تنسجم مع علم اللّغة الحديث، فلا يمكن دراسة الجملة في بنيتها الصوتية فحسب، بل يجب البحث في خصوصية الفونيمات والمورفييمات المكونة لهذه الجملة، لكونها جزءاً مهماً في تكوين البنية الدلالية، ولأنّ علم الأصوات يرتبط بعلم الدلالة فإنّ علماء اللّغة القدامى مثل: "ابن جنّي" و "السكاكي" و "الجرجاني" اهتموا بالدّراسة الصوتية، وخصائص حروف اللّغة، ومخارج الأصوات ووظائفها المختلفة.

على هذا الأساس تأتي إشكالية دراستنا، والتي مفادها: ما هي العلاقة بين الدرس الصوتي العربي القديم، والدرس اللساني الحديث في ظل البحث الوظيفي لعلم الأصوات؟، لذلك فإننا اخترنا مقارنة تأصيلية بين الدرس الصوتي عند ابن جنّي و تروبسكوي، لإحداث مقارنة وممايزة باحثين بذلك عن جذور الدرس اللساني الحديث في التراث العربي القديم.
الكلمات المفتاحية: علم الأصوات الوظيفي- اللسانيات التراثية- اللسانيات الحديثة- الفونيم – المورفيم.

Abstract:

This study aims to highlight the role of functional direction in Acoustic linguistics, and to reveal its characteristics and laws that underlie voice substitution and change, and its study is an objective study consistent with modern linguistics, it is not possible to study the sentence in its vocal structure only, but we must search for the specificity of phonemes and morphemes forming these The sentence, as it is an important part of the formation of semantic structure, and because phonology is related to semantics, ancient linguists such as: "Tbn Jenni", "Al-Sakaki" and "Al-Jarjani" were interested in phonological study, the characteristics of language letters, and the vocal outputs and their various functions.

On this basis comes the problem of our study, which is: What is the relationship between the old Arabic phonemic lesson and the modern linguistic lesson in light of the functional research of phonology? ,Therefore, we chose an original approach between the phonemic lesson of "Tbn Jenny" and "Nicolay Trubetskoy", to make a comparison and differentiation in search of The roots of the modern linguistic lesson in the ancient Arab heritage.

Key words: phonology - heritage linguistics - modern linguistics - phoneme - morphim

*** **

مقدمة:

على نماذج مخصّصة بعينها من اللّغويين، كما سنفعل نحن الآن في هذه الورقة العملية، التي من خلالها نسلّط الضوء على البحث الصوتي الوظيفي عند (تروبسكوي) ونظيره (ابن جنّي)، هي دراسة مقارنة وصفية للوقوف على تأصيل البحث الصوتي الغربي لدى العرب من خلال الاقتصار فقط على لغويين الأول من العرب القدامى والثاني من الغرب المحدثين، ولأن الأصالة في الحقيقة تقابل التقليد فإن الأصيل هو الذي لا يكون نسخة لغيره، وهذا ما يضعنا أما تساؤل جوهري: -ما هي العلاقة بين الدرس الصوتي العربي القديم، والدرس اللساني الحديث في ظل البحث الوظيفي لعلم الأصوات؟ وما هي الأصول اللسانية بين الدرس الصوتي عند ابن جنّي و تروبسكوي، وأهم نقاط الائتلاف والإخلاف بينهما؟.

1- علم الأصوات الوظيفي مقارنة اصطلاحية:

تكثرُ المصطلحات في مجال الدراسات اللغوية، ومع ذلك ليس هناك اتفاق بين اللغويين الغرب على تحديد مدلولاتها بشكل دقيق، كما أنه لا يوجد في المقابل اتفاق بين علماء اللغة العرب على توحيد المصطلح اللّغوي، وعلم الأصوات الوظيفي أحد المصطلحات التي هي الأخرى دخلت حيز التدقيق الاصطلاحي والمعجمي لأنّه يتداخل مع مصطلحات أخرى مثل: (الفونيتكس، والفونيميكس، والمورفولوجي).

تعدّ مدرسة براغ أولّ من طرحت هذا المصطلح بشكل دقيق مع أنّه "استعمل قبلها بعشرات السنين في علم اللغة الانجليزي والأمريكي بمعنى (تاريخ الأصوات)، أي دراسة التغيرات والتحوّلات التي تحدث في أصوات اللغة نتيجة

قدّم علماء اللغة قديما وحديثا في مجال علم الأصوات دراسات معمقة في الوصف الدقيق والمفصّل لمخارج الأصوات ووظائفها المتعددة، إلّا أنّ هناك اختلاف بينها، فقد كانت الدّراسات الصّوتية القديمة تقتصر على وسائل وطرائق بسيطة باستخدام التجريب التقليدي، أمّا المُحدثون فقد استعانوا بوسائل جدّ متطورة لم تكن ميسّرة لعلمائنا القدامى، منهم (ابن جنّي، والسكّاكي، والجاحظ، وسبويه...)، والتي انحصر درسهم اللغوي الصّوتي على وصف جهاز النطق الإنساني و بيان مخارج أصوات اللغة العربيّة، والتعرف على صفاتها؛ بيدَ أنّ هذا لم يمنع اللّغويين القدامى من تقديم نظرية صوتية ترتبط بمجال الدّلالة والمعنى، فقد كان المقصد من التعرّف على صفات الأصوات عملية مرتبطة بطريقة أو أخرى بتوضيح الفروقات الجوهرية للحروف لمعرفة دلالتها ووقعها على الجهاز السمعي، ولفهم عمليتي تحديد مخارج الأصوات، والتعرف على صفاتها بات من الضروري التحدّث، ولو باختصار عن علم الأصوات الوظيفي الذي يرتبط باستعمالات الصوت الدلالية ووظائفها داخل الكلمة و الجملة معا، وقد شكّل هذا النوع من الدراسات فرعا خاصا في الدرس اللساني الحديث يعرف بعلم (الفونولوجيا La phonologie) لاسيما عند لغويين مدرسة براغ الوظيفية أمثال، (جاكسون، وتروبسكوي، وأندريه مارتينييه)، والمتعمّن في مجمل دراساتهم يجد أنّها تلتقي مع الدّرس اللساني الصوتي العربي القديم، وكثيرة هي الدراسات التي تناولت هذا الموضوع، لكن كانت دراسات عامة، لا تقوم وفقا لإسقاطات تفصيلية

وكذا التغيرات التشكيلية كالمماثلة و المخالفة كما سنرى فيما بعد.

أما في الدراسات اللغوية العربية فنجد المصطلح (phonologie) إلى نطاق واسع نظرا لارتباط الدرس اللساني العربي الحديث بالدراسات اللسانية الغربية، لكنه في أول مرة ترجم للعربية إلى "علم الأصوات التنظيمي" و "علم الوظائف الأصوات"، ونجد اللساني "تمام حسان" قد أطلع على المصطلح "التشكيل الصوتي"، وقد أطلق هذا المصطلح على فرع من العلم وظيفته النظر في التركيب الصوتي للوحدات الصرفية، فهو يحلل ويصف ما يعرض لهذه الفوريمات من صور صوتية بحسب السياق الذي تقع فيه"⁴، أي أنّ هذا العلم يرتبط بدراسة الأبعاد الوظيفية الوحدة الصوتية الدالة، إضافة للفظة داخل سياق الجملة. من هنا نستنتج أنّ علم الأصوات الوظيفي (phonologie) يعني بتحديد السمات العامة التي تتكون منها هوية الصوت في لغة ما ووظائفها المتعددة، لاستخلاص القوانين التي تخضع لها، والنتائج اللغوية التي تترتب على كل منها مثل: النبر، التنغيم، الإبدال، الوقف والعنصر الذي يشكل موضوعه (الفونيم phonème).

2- علم الأصوات الوظيفي في الدرس الصوتي العربي:

لو تمعنا في علم الأصوات الوظيفي الحديث عند الغرب لوجدنا مباحث كثيرة من هذا العلم الحديث كانت معروفة عند علماء اللغة العربية قديما وحديثا، وعلى هذا الأساس لم تكن مسائل تعلق الأصوات بعضها ببعض مخلوقة من العدم في هذا العصر الحديث بل جمعت الآراء المتعلقة بمباحثها الصوتية تحت هذا الاسم هو الحديث، فالحدثة للاسم وليست للمباحث التي عرفت فيما

تطورها، وهو حينئذ يكون مرادفا لما يسم (Historical)، وتستعمل "براغ" مصطلح (Phonologie) على عكس ما استعمله فيرديناند دي سوسير (Ferdinand de Saussure) للدلالة على فرع من علم اللغة التاريخي، فهي تعتبر فرع من علم اللغة الذي يعالج الظواهر الصوتية من ناحية وظيفتها اللغوية، ولذلك نجد الروسي نيكولاي تروبتسكوي (Nikolai Trubetzkoy) يعتبر الفونولوجيا فرعا من علم اللغة أمّا فونوتيك (phonetics) فقد أخرجه كل من "تروبتسكوي و جاكسون" من علم اللغة واعتبراه علما خالصا من العلوم الطبيعية يقدم يد المساعدة لعلم اللغة"¹، والعيب في هذا المصطلح أنّه مشتق من لفظ (phonème) وربما يوهّم أن مباحثه مقصورة على الفونيمات فقط، مع أن مباحثه أشمل"²، كما استعمله هالمسليف (Hjelmslev) المصطلح وعرفه بقوله: "هو العلم الذي يعالج الفونيمات على وجه الحصر باعتبارها تشكل عناصر اللغة، وأنّ الاستعمال الفونيماتكي هو تحقيق الفونيم بالنطق، وهذا هو موضوع علم الأصوات إذا نظرنا إلى دراسة الصوت المتصلة بحركة الكلام وهو موضوع علم الفونولوجيا إذا نظرنا إلى دراسة الصوت المتصلة بنظام اللغة"³، علم الأصوات الوظيفي عموما يظهر بمسميات عديدة مثل: علم الأصوات التشكيلي والتنظيمي، أو وظيفية الأصوات، وغيرها من المسميات التي أطلقت على العلم الذي يعني بدراسة وظائف الأصوات و العلاقة الأثرية بين الأصوات، لأن وظيفة الصوت لا تظهر إلا من خلال مجموعات صوتية ذات دلالة، إذ يندرج هذا العلم عموما دراسة الظواهر الصوتية كالفونيم والمقطع، وأخرى سياقه كالنبر و التنغيم والفواصل الصوتية

الدراسات الصوتية العربية، على غرار دراسات "ابن فارس" و"الجاحظ" و"ابن جني" الذي هو محل دراستنا في هذه المقالة العلمية.

ناقش اللغويون المحدثون من عرب أيضا مجال الدراسة الوظيفي للأصوات، فكانوا فيه كالقدامى بين مؤيد ورافض، فنجد على سبيل المثال "فارس الشدياق" الذي ألف عدة كتب كان جل اهتمامه فيها منصبا على العلاقة بين الأصوات و مدلولتها، و ما يتعلق بذلك من إبدال و قلب إلى غير ذلك من قضايا الدلالية، و أبرز هذه الكتب كتابه "سر اللبالي في القلب و الإبدال" الذي كما هو واضح من عنوانه مخصص لمسائل القلب و الإبدال، غير أن هنا لم يمنع الحديث عن مناسبة أصوات الهجاء لمعانيها في مقدمة الكتاب، كما أنه أشار فيه إلى كتاب اسمه "منتهى العجب في خصائص لغة العرب"⁷، وفي المقابل نجد "رفائيل نخلة اليسوعي" يعتقد ثلاثة فصول في "غرائب اللغة" يتناول فيها بعض مظاهر الدلالة الصوتية، فمن ذلك حكاية أصوات الأشياء التي رأي أن كلما كلماتها كثيرة في لغتنا، و قد ميزنا بين نوعين منها، الأول على أوزان شتى، و الثاني على وزن فعقعق ومشتقاته ، فمن الأول "عوى و نبج الكلب، و ماء القط، فحق الحمار سهل الحصان" و من الثاني "تعتع تختخ، ثغثغ، عطعط"⁸، وكذلك الحال مع "مازن المبارك" يرى أن الدلالة الصوتية عنده هي دلالة حركات الإعراب، فبعد استعراضه لأراء المعارضين الدلالة الحركات على المعاني يتساءل عن الفرق بين الجد بالفتح والجد بالكسر إن يكن فرقا في الصوت"⁹، حيث استنتج أن حركات الإعراب هي حركات صوتية تسهم في تغيير الدلالة بطريقة مباشرة، وأن العلامة الصوتية من أوضح أنواع العلامات المعترف بها.

كالعلماء العرب على الأقل- الذين بقوا فيها، وقد شهد لهم المحدثون بالأعمال العلمية الجليلة التي أدركوها في زمانهم خدمة العربية ولغة القرآن بخاصة في ناحية أدواته وترتيبه، أوصلهم إلى التحقيق الوصفي للصوت العربي مخرجا وصفات بما يكشف عن أنهم يملكون فكرة تتضمن خافية وخطوطا لهذا المستوى من الدراسة.

وكانت البداية العلمية للدراسة الصوتية عند العرب قبل بداية النحو وعلومه، وكان الباعث لظهورها الاهتمام بظاهرة اللحن في القراءات القرآنية كأحد الأسباب للعناية بالصوتيات العربية، وجاء في لسان العرب للابن منظور أن اللحن له معان منها أنه "من الأصوات المصوغة وجمعه ألحان، ولحن في قراءته إذا غرد وطرب فيها ألحان وهو لحن الناس إذا كان أحسنهم قراءة أو غناء"⁵، فاللحن مرتبط أساسا بالمجال الصوتي للحرف أو الكلمة، لكن كان الغرض منه الحفظ على الدلالة والمعنى، فقد تفتنوا للعلاقة بين الصوت والمعنى قبل الدخول في مرحلة التعقيد للغة العربية، وهذه العناية العلمية بالصوت اللغوي كان الأولى من نوعها لأنها كان في مرحلة التدوين التي استعدت الكثير من اللغويين العرب للتوقف عندها، ومثال ذلك نجد أن جهود (الخليل بن أحمد الفراهيدي) في هذا المجال قصبت أسرار العربية من خلال أقواله التي أملاها على "سيبويه" وعلى "الليث بن المظفر" وما نقل له- للخليل في تهذيب اللغة للأزهري وكتاب الجماهر "لابن دريد"، التي لم يقتصر فيها على بحث المستوى الصوتي في مخرجه وصفته لا غير كما فعل علماء اليونان وفلاسفتهم أو كما انتهى إليه علماء الهند بل اتسم بحثه بالسمة العملية التي أفادت لاحقا أصول النحو في مستوياته الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية.⁶ فالدراسات كثيرة ومعقدة في مجال

3-علم الأصوات الوظيفي في الدرس الصوتي الغربي:

لم تكن هناك دراسات صوتية للغرب قديما لعلم (الفونولوجيا) كما نعرفها في العصر الحديث لكن كانت له ملامح واضحة في دراسات الهنود حول اكتساب الأصوات لمعانيها، و تفرقوا في ذلك مذاهب بين قائل بأن اللغة هبة إلهية و قائل بأنها من وضع البشر و آخر يذهب ، إلى أنها قديمة، نشأت ألفاظها من محاكاة ألفاظ الطبيعة على غرار الرومان فلم يزدوا كثيرا على ما أنحره اليونانيون في مجال علم الأصوات، و قد رأى روبرت أن الدرس الصوتي عند الرومان و حتى عند اليونان لا يبلغ مبلغ الدرس الصوتي عند الهنود و العرب¹⁰، وفي القرن الثامن عشر اكتشفت اللغة السنسكريتية، فنشطت حركة المقارنة بين اللغات الأوروبية و اللغة السنسكريتية وكانت لحروفها المكتوبة هي المعتمد المقارنين وفي القرن التاسع عشر ومع تطور العلوم الفيزيائية تطورت الدراسة التجريبية للأصوات، و ظهرت الصوتيات التجريبية التي تعتمد على الأجهزة و الآلات لقياس الصوت و دراسة ظواهره، وكانت ممهدا لظهور الدراسة الوظيفية لعلم الأصوات وتحديدًا في المدرسة البنيوية براغ، إلا أن الجدل ظل قائما في أوروبا حول الدراسات الصوتية (Phonetics) وأصبح اللغويون يؤثرون الدراسة الآلية لمعظم الظواهر اللغوية و صارت الغلبة لأولئك المعارضين مبدأ الربط بين الأصوات ومدلولاتها، وتكاد تنحصر أدلتهم في "كون الكلمة الواحدة تعبر عن عدة معان وهو ما يعرف بالمشترك اللفظي، وأن الأصوات تخضع للتطور المستمر على توالي الأيام، وأن المعين الواحد قد يعبر عنه بعدة كلمات مختلفة الأصوات وهو ما يعبرون عنه بالترادف، كما أنّ الأصوات ذات الدلالة الصوتية قليلة في جميع اللغات بالنظر

المعجمات التي تحتفظ بين دفوفها عشرات الآلاف من الكلمات"¹¹ ، ولكن ما لبثت إلا وظهرت البنيوية الوظيفية التي اهتمت بالدراسة الوظيفية للأصوات على رأسها مدرسة براغ لكل أعلامها.

أحدثت مدرسة براغ " فرقا كبيرا بين علم الأصوات (la phonetique) و علم الأصوات الوظيفي (la phonologie) وقد ركزت هذه المدرسة على دراسة الفونيم لأنها تعدّ الفونيمات (الأصوات) تنتمي إلى اللغة بينما عدت الأصوات الكلامية تنتهي إلى الكلام إذ ركزت على دراسة الفونيم وتطوير نظرية الأصوات الكلامية أي النظرية الفونولوجية"¹²، ومن بين إنجازات هذه المدرسة منها : إنجازات (تربسكوي) الذي كان عضوا فعالا في حلقة براغ وقد عد كتابه مبادئ الصيانة (principles of phonologie) والذي أكمله بقليل من المصدر الأساسي لإيضاح منهجه الوظيفي في دراسة الأصوات ومنها مجموعة من التقابلات " التقابل الخاص (privale opposition)، لم تقتصر على هذا فحسب فيما يخص الدرس الصوتي بل شملت كل السمات الصوتية "يعتبر النغم سمة مختصة بالمنحى التناغي الذي يشكل محصلة ضرورية لتذبذبات المزمار فالأقسام التي تسبق وتلي نقطة معينة من المنحى التناغي محددة أليا بضرورة ربطها بالنغمات الدقيقة المشابهة بعضها البعض ويقال عن النغمات أنها تناغمية حينما تكون سمها الملائمة في الاتجاه الحائد لجزء من المنحى التناغي الهابط، أو موحد إلى غير ذلك"¹³، وقد اهتمت هذه المدرسة بالظواهر الصوتية أو ما يعرف بالفونولوجيا وانصب أغلب اهتماماتها على المستوى الصوتي والمنهج المنطبق عليه " مثال : لو أخذنا مدونة مكونة من قاد - عاد - ساد ثم قمنا بتقطيعها إلى أصغر الوحدات غير الدالة الفونيمات اتضح لنا الفوارق والتشابه على

ومن جهة أخرى نجد المدرسة التوليدية التحويلية والتي كان مؤسسها (نعوم تشومسكي) فركزت هذه المدرسة على الأنماط الصوتية في اللغة الإنجليزية (**les types phonologique de la langue**) فهذه المدرسة هي مدرسة غنية بمكتسباتها ومبادئها أما المستوى الفونولوجي هو المستوى الأرق الذي أشار إليه (نعوم تشومسكي) " إن الفرضيات اللسانية التي تنطلق منها دراسة الأصوات اللغوية منها النظرية الفونولوجية التوليدية التحويلية وفونولوجية الإنجليزية " ¹⁹ ، تقوم هذه النظرية على فرضيات جعلت هذه المدرسة في قمة الارتقاء في جميع المستويات خاصة في المستوى الصوتي، فهذا الأخير أو الفونولوجي يعتمد في دراسة للكلمة أو الصوت عدة طرق "الفونولوجيا (phonology) ويختص بذلك الطريقة التي يمكن أن تتألف بها الأصوات في أية لغة كانت مثل : نأخذ "went" ²⁰ ، فمعنى هذا أن المستوى الصوتي شمل جميع اللغات، أين أنّ (تشومسكي) يؤمن بمبدأ الشمولية والكلية في الدراسة اللغوية.

4- الدرس الصوتي الوظيفي بين ابن جني و ترويسكوي:

يفرّق (ترويسكوي) بادی الأمر بين علم الأصوات وعلم الأصوات الوظيفي والذي يطلق عليه أيضا كثيرا في كتبه بـ:(علم الصياغة)* متابعا فصل دي سوسير بين (اللغة والكلام)، بين البنية اللغوية والفعل النشاط الكلامي، ولأن جوهر الصّوت بالنسبة له لا يكمن في خاصيته الفيزيائية، بل في الوظيفة الفارقة داخل نظام صوتي محدد، فقد طالب إلى جانب علم الأصوات(Phonetics) الذي له علاقة بالأصوات بوصفها وحدات فيزيائية - سمعية ، بعلم أصوات جديد أساسا، يطلق عليه علم أصوات البنية اللغوية أو الفونولوجيا"²¹، وبالتالي فإن بحثه

مستوى المخرج موضع النطق أو الصفة " ¹⁴ ، فالمستوى الصوتي للكلمة متكون من وحدات دالة ووحدات غير دالة وبهذا الصدد تتبين كل الفوارق الموجودة في كل وحدة ، إذ أن هناك عدة تقطيعات لأغلب الوحدات الصوتية وقد ركز دارسي الصوت اللغوي في هذه المدرسة على تقطيعين: التقطيع الأولي هو تقطيع متكون من الكلمات الدالة (Moneme) وخير دليل على ذلك : أحضر الولد الكتاب أحضر آل/ ولد/ آل/ كتاب أما فيما يخص التقطيع الثانوي هو بدوره يقوم بتحليل الوحدات المستقلة ذات المحتوى الصوتي والدلالي إلى الفونيمات، أي إلى أصغر الوحدات الصوتية المجردة من المعنى " ¹⁵ ، فهذا التقطيع هو تقطيع أساسي يمكن دارسي الصوت اللغوي من فهم ودراسة وتحليل كل الوحدات الموجودة في الكلمة الواحدة.

لم يقتصر الدرس الصوتي الوظيفي على مدرسة براغ فقط بل شملت دراساته حتى المدرسة الإنجليزية الذي كان مؤسسها (فيرث) وقد قامت هذه المدرسة على نزعتين " إن الأصوات الوظيفية أي الفونولوجية تنطلق في بحثها على المبادئ الفونولوجية والدراسات الدقيقة في مباحث الأصوات اللغوية " ¹⁶ ، فهذه النزعة اعتمدت على مبادئ دقيقة في مباحث الصوت اللغوي، أما النزعة الثانية فهي « دلالية واعتمدت في بحثها للظواهر اللغوية على السياق ومقتضى الحال » ¹⁷ ، فالدراسة الصوتية تخطت ذلك إلى الدراسة الدلالية أي الصوت في هذه المدرسة كان على صورة عقلية أي صوت مفرد ومجرد، فالصوت في هذه المدرسة هو ذات مدلول عقلي وأغلب اهتماماته كانت منصبه على الصوتية الوظيفية وعلم الدلالة وهذا دليل على أنه يشغل منصب في قسم الصوتيات "برى (فيرث) أن النظم الصوتية هي هياكل مبتكرة ومنظمة " ¹⁸ ،

الصوت دراسة وصفية من ناحية مخارجها فحسب، فقد تعدى ذلك إلى دراسة الصوت وتغيراته وكيفية تشكّل الدلالة بحيث يعطي الصّوت وظيفة في البنية اللغوية كما هو الحال عند ترسكوي، ويفرّق (ابن جني) بين الحرف والصوت فيقول: "أعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلا متصلا، حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين، مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا، وتختلف أجراس الحروف، حسب اختلاف مقاطعها، وإذا تفتنت لذلك وجدته على ما ذكرته لك، ألا ترى أنك تبتدئ الصّوت من أقصى حلقك، ثم تبلغ به أي المقاطع شئت، فتجد له جرسا ما، فإن انتقلت عنه راجعا منه، أو متجاوزا له، ثم قطعت، أحسست عند ذلك صدى غير الصدى الأول؛ وذلك نحو الكاف، فإنك إذا قطعت بها، سمعت هنا صدى ما، فإن رجعت إلى القاف سمعت غيره، وإن جرت إلى الجيم، سمعت غير ذينك الأولين"²⁵، فابن جني يفهم الصوت هنا على أنه صوت ذبذبة الأوتار الصوتية، وإن لم يصح بذلك، أما الحرف فإنه يرادف في كلامه مخرج الصوت، وذلك واضح من قوله بعد ذلك: "و الحرف حدّ منقطع الصوت وغايته"²⁶، ومثل هذا الفهم للصوت والحرف عند ابن جني الذي يعتبر الحرف هيئة للصوت عارضة له، يتميز بها عن صوت آخر مثله في الحدّة والثقل تميزا في المسموع، فتصوّر (الفونيم) بالمعنى الذي قدمناه تصوّر حديث جدا في علم اللغة، وفي علم الأصوات اللغوية لدى العلماء المحدثين، يحث لاحتوا أن أصوات أي لغة من اللغات، لاحد لها في واقع الأمر، وأن ما نسميه صوتا واحدا، قد يتردد هو نفسه في كلمة من الكلمات، أكثر من مرة، ولكنه لا ينطق بنفس الصورة في كل مرة، فإننا إذا نطقنا كلمة مثل: "بَطْرٌ"، فإننا نجد أن صوت الفتحة الأولى في هذه الكلمة، غير الفتحة

تمركز في الأول على التفرقة بين العلمية من الناحية العملية " فعلم الأصوات بالنسبة هو علم الجانب المادي من الكلام الإنساني، أما الفونولوجيا فعلى العكس من ذلك لم يهتم بالصوت إلا بذلك الذي يؤدي وظيفة محددة في البنية اللغوية، وهكذا لا يعني علم الفونولوجيا بالخاصية الفيزيائية للأصوات، بل بوظيفتها في كل النظام اللغوي، ولا تؤدي الأصوات وظيفتها التواصلية إلا من خلال قيمتها المعرفية المتبادلة في النظام اللغوي"²²، من هنا نرى أن ترسكوي يطلق على الأصوات التي لها خاصية فارقة للمعنى والفونيمات بالوحدات الصوتية الوظيفية العاملة في النظام اللغوي.

ومن جهة أخرى جاءت كتب (ابن جني) حافلة القضايا الصوتية، "وفيها وضع الأسس الأولى لمعالم علم الأصوات فاعتمد على منهج يقوم على الوصف الدقيق والشرح والتعليل والتوجيه فتعرض إلى وصف مخارج الأصوات بطريقة تشريحية دقيقة ذاكرة صفاتها العامة ومقسما إياها أقساما مختلفة، ثم تطرق إلى التغيرات التي تعترض الصوت في الكلمة وهو ما يسمى بالإعلال، والقلب، والإدغام، والنقل، والحذف، ثم تحدث عن مبدأ المخالفة والمماثلة والتباعد وأثره في فصاحة الكلمة"²³، كما إن ابن جني يوضح علاقة الصوت بالدلالة فيقول: "فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع... وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمة الأحداث المعبر عنها، فيعدلونها ويحتذون عليها... من ذلك قولهم خَضَمَ وَقَضَمَ، فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ، والقضم لليابس، نحو قضم الدابة شعيرها ونحو ذلك... فاختروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس، حدوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث"²⁴، وبالتالي فإن دراسة ابن جني لم تقتصر على دراسة

ولقد اكتشف تروبسكوي وظيفتين أساسيتين في مجال الفونولوجيا، "الوظيفة التمييزية **distinctive function**، والوظيفة المحددة **demarcative function** التي تبيّن الحدود بين مبنى لغوي، وآخر في السلسلة الكلامية، وتعزّز التماسك في المبنى اللغوي الواحد كي يبدو موحدًا، وإذا كانت الوظيفة التمييزية تنشأ عن مقابلة الصيغ بعضها ببعض، فإن الوظيفة المحددة تنشأ عن استخدام السمات فوق المقطعية **suprasegmental features** التي تتعلق بسلسلة صيغية مكونة من صيغتين فأكثر، وذلك كالنبر **stress**، والنغمة **tone**، والطول **length**، فالنبر مثلا يميز بين صيغة الاسم في الكلمة الإنجليزية **import** وصيغتها الفعلية **import**³⁰، حيث يكون النبر في الاسم على المقطع الأول، وفي الفعل على المقطع الثاني، وهناك سببان للاعتبار هذه السمة فوق مقطعية، أو عروضية أولها، أن النبر مسألة تتعلق بطغيان أو إبراز لمقطع على المقاطع الأخرى التي تشترك معه في المبنى نفسه، أو في المباني المصاحبة له، وثانها، أن التحقق الصوتي للنبر لا يمكن أن يوصف بأنه سابق، أو لاحق من الناحية الزمانية للتحقق الصوتي لما يحاذيه من عناصر صيغية أخرى، وفي هذا يختلف عن السمات المقطعية التي يمكن أن نقول فيها ذلك³¹، لذلك فإن التقابل بين الصيغيات يعبر عن اختلافهما، "واختلاف معاني الكلمات بناء على ذلك، فإن التقابل بين بعض التنوعات الصوتية **allophones** للصيغة الواحدة قد يكون له وظيفة تعبيرية **expressive function**، فكلما ضاقت فتحة الصائتتين /au/ في لهجة لندن معبر ذلك عن تدني مكانة المتكلم الاجتماعية، وكذا فإن نطق الضاد دالا عند النساء في مصر كما في كلمة (تفضل) يعبر عن جنس المتكلم."³²، وقد ذكر ابن جني كلمة المقطع

الثانية، من الناحية الصوتية، وغير الفتحة الثالثة، ومع أن هذه الفتحات الثلاث متغايرة فيما بينها، فإن هذا التغير لا يؤدي إلى تغيير في وظيفة أيّ منها، فلا يكون للكلمة معنى معين إذا استخدمنا فيها فتحة من هذه الفتحات، ثم يتغير المعنى إذا غيرنا هذه الفتحة بفتحة أخرى، والوظيفة اللغوية هي التي تجعلنا نتغاضى عن أمثال هذه التنوعات، التي يقضي بها سياق صوتي معين²⁷.

وتطرق ابن جني أيضا للتغيرات الصوتية التي تحدث للكلمة محددًا عوامل ذلك "فعقد بابا لها وعرف الإدغام بأنه تقريب صوت من صوت وقسمه إلى الإدغام الأكبر والإدغام الأصغر، وبين أن الثاني هو تقريب الحرف من الحرف، وأدرج تحته أنواعا من التغيير كالقلب والإخفاء والإبدال مثل اصبر، وقطع، وأطره"²⁸، وفي المقابل نجد أنّ تروبسكوي قد أعطى اهتماما كبيرا بالعلاقات الاستبدالية بين الصيغيات، فوازن بينها معتمدا في تمييز بعضها من بعض على السمات التي تميز إحداها من الأخرى، كمال أشار إلى أنواع من التقابلات التي تقع بين الصيغيات، نذكر منها:²⁹

- أ-التقابل الخاص (**private opposition**): وذلك حين يكون المميز بين الصيغتين سمة واحدة كما في التقابل بين التاء والدال اللذين نقول في التمييز بينهما أن الدال/د/ مجهورة، والتاء/ت/ مهموسة.
- ب- التقابل التدريجي (**gradual opposition**): وذلك حين يكون الاختلاف بين الصيغيات ناشئا عن سمة التدرج كما في الفرق بين الصيغة القصيرة الكسرة العربية، ومقابلتها الأطول ياء المد.
- ج- التقابل المتكافئ (**auivalent opposition**): وذلك حين يكون للصيغة سمة مميزة ليست في الصيغيات الأخرى، كما في التاء/ت/، والكاف.

أخرى أي يقوم بالتفريق بين الكلمات، وبه تمكّن من تحديد حروف اللغة العربية التسعة والعشرين، وإن كان بهذا التحديد مقلدا لسابقه أمثال الخليل وسبويه إلا أنّ كلامه عنه تأكيدا له ، وبما أنّ ابن جني قد توصل إلى أهم وظائف الفونيم، فإنه بالتأكيد كان يفقه فكرة الفونيم وكان على وعي بها، وإن لم يصرح بذلك، إلا أنّ ما توصل إليه يغني عن كل تصريح.

مما سبق نستنتج أنّ كلا من ابن جني وتربسكوي يعتبران المقطع الصوتي (المورفيم) هو أصغر وحدة صرفية في بنية الكلمة، بحيث أنّ تغييرها يغيّر في المعنى، إلا أنّ كلاهما لم يستعمل هذا المصطلح أثناء الحديث عن الصّوت باعتباره أصغر وحدة صوتية من ناحية الإبدال والتغيرات والتقابلات التي تحدث بسبب السّمات المتعددة للحرف وربطها بوظيفتها الدلالية داخل الكلمة، بيد أنّ الدراسة المقطعية للصوت تتداخل مع كثيرا مع الدراسة الوظيفية للجملّة، والتي هي ليست محل دراستنا.

خاتمة:

من خلال ما سبق نخلص لمجموعة من

النتائج نلخصها في ما يلي:

1- لم تكن الدراسة الوظيفية للصوت وليدة العصر الحديث، بل كان الدرس الصوتي العربي مليئا بالقضايا الصوتية التي أعادت المدارس الغربية إثارتها بشكل علمي وعملي يتناسب مع التطور الحاصل في مجال اللغويات.

2- لم تقتصر الدراسة الصوتية عند ابن جني وتربسكوي على دراسة مخارج الأصوات وسماتها، بل تعدت إلى دراسة وظائفها داخل النظام اللغوي، وارتبط بحثهما بعلاقة علم الأصوات بالدلالة.

عند حديثه عن مخارج الحروف فقال: "أعلم أنّ الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلا متصلا حتى يعرض له في الحلق والضم والشفيتين مقاطع تثنية عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا، وتختلف الحروف بحسب اختلاف مقاطعها"³³، وذكر أيضا كلمة المقاطع في قوله: "الأ ترى أنّ العناية في الشعر إنما هي بالقوافي لأنها المقاطع، وفي السجع كمثل ذلك..."³⁴، وبالتالي فإننا لنا أنّ ابن جني استعمل كلمة مقطع ومقاطع بمفهوم غير الذي يعرفه ويفهمه العلماء المحدثون، ولمح ابن جني إلى ما يعرف بـ (الفونيم)، وهي أنّه قد يتردد الصوت نفسه أكثر من مرة في كلمة من الكلمات، ولكنه ينطق في كل مرة نطقا خاصا به أي: الصوت الذي يختلف باختلاف سياقه الصوتي، فقد ذكر ابن جني ذلك قائلا: "وذلك أنّ العين إذا كانت ساكنة فليس سكونها كسكون اللّام وسأوضح لك حقيقة ذلك لتعجب من لطف غموضه وذلك أنّ الحرف الساكن ليست حالة إذا أدرجته إلى ما بعده كحاله إذا وقفت عليه"³⁵، وهذا يعني أنّ النون مثلا تنوع بحسب سياقها الصوتي، فالنون في كلمة (نهر) تختلف من الناحية الصوتية عن اللون في كلمة (منك)، كما أشار أيضا إلى الدلالة المستمدة من الصيغ الصرفية، مثل التي على وزن الفعلان وقال أنهما تأتي للاضطراب والحركة نحو النقران والغليان والغليان ... والمصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير نحو الزعزعة والقلقلة ... وغيرها من الصيغ"³⁶، ونظر ابن جني أيضا إلى الحرف على أنّه: "حدّ منقطع الصوت و غايته و طرفه"³⁷، وقد سمّى المقطع حرفا أيضا، وهو ما يعرض للصوت فيثنيه على امتداده، فقال: "فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا"³⁸، هذا ما يعني أنّ (الفونيم) كفكرة كان موجودا في فكر ابن جني، و لذلك توصل إلى أنّ الفونيم يميّز كلمة عن

3-توصل ابن جني إلى أنّ أهم وظائف(الصوت) الفونيم، على رغم أنه لم يكن يفقه فكرة الفونيم وكان على وعي بها، وإن لم يصرح بذلك، إلا أنّ ما توصل إليه يغني عن كل تصريح، أنّه دراسته للصوت وظيفيا كانت أصيلة وسباقة من الدراسة الصوتية الوظيفية التي جاء بها تريبسكوي.

4- لا تؤدي الأصوات وظيفتها التواصلية إلا من خلال قيمتها المعرفية المتبادلة في النظام اللغوي، والتي تتكون في علاقات الإبدال والقلب، والتغيرات الصوتية المتعددة.

5- اتسمت دراسة تريبسكوي بالعملية والموضوعية ذات الطابع التجريبي على كل اللغات بشكل شمولي، في حين اقتصر عند ابن جني بالوصف والنمذجة وتقديم أمثلة للتغيرات الصوتية من وظائف اللغة العربية في شكلها الصوتي بشكل عام.

هوامش الدراسة:

- 1 - أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب بيروت القاهرة، دط، 1997، ص 66.
- 2 - المرجع نفسه: ص 67.
- 3 - المرجع نفسه: ص 67، 68.
- 4 - المرجع نفسه: ص 69، 70.
- 5 - بوعناني سعاد أمينة: الدرس الصوتي عند علماء القرن الخامس الهجري ، رسالة لنيل شهادة دكتوراه ، في علوم اللغة العربية، جامعة وهران ، 2010/2011 ، ص 11-15
- 6 - السعيد شنوقة: مدخل إلى المدارس اللسانية المعاصرة ، المكتبة الأزهرية للتراث ، الجزيرة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2008، ص 76.
- 7 - صالح سليم عبد القادر الفاخري: دلالة الصوتية في اللغة العربية، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ط1، 2011، ص 55.
- 8 - ريفانل نخلة اليسوعي: غرائب اللغة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط1، 1959، ص ص 44-45.
- 9 - مازن مبارك: نحو وعي لغوي، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط1، 1979، ص 93.
- 10 - خلفية بوجادي: محاضرات في علم الدلالة، بيت الحكمة للنشر، الجزائر، ط2، 2012، ص 34.

- 11 - إبراهيم أنيس : دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ط1، 2010، ص 144.
- 12 - سعيد شنوقة: مدخل إلى المدارس اللسانية، ص 75.
- 13 - أندريه مارتينييه : وظيفة الألسنة وديناميتها ، تر: نادر سراج مؤسسة بن راشد آل كثر، الإمارات، ط 1، دت، ص 275.
- 14 - شفيقة العلوي: محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، أبحاث للترجمة والنشر والتوزيع، ط 1، 2004، ص 17.
- 15 - المرجع نفسه" ص 19
- 16 - سعيد شنوقة ، مدخل إلى المدارس اللسانية المعاصرة، ص 78
- 17 - محمد محمد يونس علي ، مدخل إلى اللسانيات، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت - لبنان - ، ط 1 ، دت ، ص 78.
- 18 - صلاح الدين بن صالح حسنين، دراسات في علم اللغة الوصفي والتاريخي والمقارن، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، ط 1، ص 8
- 19 - نعمان بوقرة: المدارس اللسانية المعاصرة ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، د ط ، دت ، ص 135.
- 20 - جون ليونز: نظرية تشومسكي اللغوية، تر: حلي خليل ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ط 1 ، ، ص 52-53
- * علم الصيانت: يهتم هذا العلم بالأصوات الكلامية ذات الصلة بالدلالة، تلك المسماة بالصيانتات (phomemes)، وتنوعاتها الصوتية في لغة ما وخصائصها وأنظمتها، والقواعد الصيانتية التي تحكمها. أنظر: محمد محمد علي يونس: مدخل إلى اللسانيات، ص 16.
- 21 - جرهارد هلبش: تاريخ علم اللغة الحديث تر: سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط1، 2003، ص ص 97-98.
- 22 - المرجع نفسه: ص 97.
- 23 - ابن جني، سر صناعة الإعراب، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مطبعة مصطفى البابي، ط1، 1954، ص ص 17، 18
- 24 - ابن جني: الخصائص مج 2، تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، مصر، دط، 2006، ص 187.
- 25 - ابن جني: سر صناعة الإعراب مج 1، ص 06.
- 26 - المرجع نفسه: ، ص 16.
- 27 - رمضان عبد التواب: المدخل إلى علم اللغة، ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1997، ص ص 86، 85.
- 28 - ابن جني: الخصائص مج 2، ص 1945.
- 29 - محمد محمد يونس علي: مدخل إلى اللسانيات، ص ص 76، 77.
- 30 - المرجع نفسه: ص 77.
- 31 - المرجع نفسه: ص 77.
- 32 - المرجع نفسه: ص 78.
- 33 - ابن جني ، سر صناعة الإعراب، مج 1، ص 19.
- 34 - ابن جني ، الخصائص، مج 1، ص 82.
- 35 - المصدر نفسه: مج 1، ص 57.
- 36 - المصدر نفسه: مج 2، ن ص.
- 37 - ابن جني أبو الفتح عثمان، سر صناعة الإعراب ، تح: محمد حسن اسماعيل، أحمد رشدي شحاتة عامر، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 2000، مج 1، ص 28.
- 38 - المصدر نفسه: مج 1، ص 19. *** **